ترميم المدن القديمة وأثره على صناعة السياحة
* المدينة القديمة بعنابة أنموذجا *

د. سعيدون ليليا
جامعة عنابة

الملخص: تمتلك الجزائر طاقات طبيعية وتاريخية هائلة، وتتميز بتنوع بيئي فريد من نوعه يجمع بين الصحراء، البحر والغابات. ورغم المخططات التي رسمتها الحكومة لتحويل قطاع السياحة إلى مورد يوازي تجارة قطاع المحروقات، وصناعة اقتصادية رئيسية إلا أن الظروف الأمنية وسوء التسيير في كثير من الأحيان جعل من الجزائر اقليما للسياحة الموسمية المرتكزة على الواجهات البحرية الأمر دون استغلال فعلي للتراكم الحضاري العمراني بكل رموزه وثقافاته. فالمتجول في مدينة عنابة بعيدا عن واجهتها البحرية يدرك أسرار معقل التاريخ والتراث والحضارة والجمال وعراقة كنوز المدينة القديمة التي تتجسد فيها أنامل التشييد والتصميم البديع عبر الازمان. إن قلة العناية والترميم وعدم اهتمام السلطات المعنية بأهمية هذه الثروة العمرانية في تواصل الأجيال وتدعيم السياحة جعل منها مجرد ديكور مهدد بالاندثار مكتظ بالانحرافات الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: الجزائر، عنابة، صناعة السياحة، المدينة القديمة، الترميم.

Résumé : L'Algérie possède un énorme potentiel naturel et historique. Elle a une diversité écologique unique qui rassemble le littoral, le domaine forestier et le Sahara. Malgré les programmes développés par le gouvernement pour faire du secteur touristique une ressource économique principale et parallèle à celle des hydrocarbures, les conditions sécuritaires ainsi que sa mauvaise gestion ont fait de l'Algérie un territoire touristique saisonnier, basé uniquement sur la façade maritime. En dehors de celle-ci, le visiteur d'Annaba pourrait sans doute percevoir la beauté de ce lieu d'histoire et de civilisation ; ce trésor : c'est la vieille ville. Malheureusement, ce patrimoine reste envahi par les maux sociaux puisque les autorités locales ne s'activent nullement pour sa rénovation.
Mots clefs : Algérie, Annaba, L'Industrie du Tourisme, Vieille Ville, Rénovation.

المقدمة:

لقد أصبحت السياحة اليوم صناعة رئيسية على النطاق العالمي تشكل موردا هاما بالنسبة للعديد من الدول. لكن ترقية هذا النشاط التجاري لم يأت من فراغ وإنما نتيجة الاهتمام بالقطاع وتسخير كل الإمكانيات، والسعي وراء التجديد بعيدا عن مقومات السياحة التقليدية التي لطالما دعمت بجمالية الشواطئ. فإسبانيا مثلا كانت ولا تزال نموذجا ناجحا عن تسخير والحفاظ على العمران الذي توارثته عن الحضارة العربية الإسلامية بأندلسها الفاتن لجعله طاقة فعالة تخدم السياحة. وفعلا إن كان التوجه القديم سعى إلى استغلال الواجهات البحرية في تطوير السياحة لمواجهة عقبات تجارة المحروقات بالنسبة للعديد من الدول فإن التوجه اليوم أصبح واضحا نحو استغلال التراكم الحضاري العمراني برموزه وثقافاته للتعبير عن الثراء والتمكن السياحي.

وتمتلك الجزائر بدورها طاقات طبيعية وتاريخية هائلة، وتتميز بتنوع فريد من نوعه يجمع بين الصحراء، البحر والغابات. ورغم المخططات التي رسمتها الدولة لتحويل قطاع السياحة إلى مورد يوازي تجارة قطاع المحروقات، إلا أن الظروف الأمنية وسوء التسيير في كثير من الأحيان جعل من البلاد موقعا للسياحة الموسمية المرتكزة على الواجهات البحرية الأمر الذي يستوجب تدعيم أقطاب وعناصر سياحية أخرى تستلهم ذاتها من الجمال التاريخي، الحضاري والعمراني.

فالجزائر لا زالت تشكل في أعين الفضوليين فضاءا خصبا للاستكشاف والمغامرة فمنذ 1980 انضمت سبع مواقع جزائرية إلى سجل الإرث العالمي وعلى رأسها القصبة بعمرانها المنمق والمتناسق. أما عنابة مدينة التاريخ والتراث والحضارة والجمال فلا

نسخة غير قابلة للطباعة

يزال الطراز المعماري فيها بطابعه المليء بالأسرار شاهد ودليل على عراقة المدينة وتاريخها الحافل. ولعل المتجول بعيدا عن واجهتها البحرية يدرك جمالا من نوع آخر ترسمه كنوز مدينة بونة الأثرية وبنايات المدينة القديمة وساحة الثورة... ولحد اليوم لا يزال البحث مستمرا في أسرار هذه الفسيفساء والأشكال ذات الأهمية الأثرية التي تعاقب عليها الفينيقيين، النوميديين، القرطاجيين، الرومان، المسيحيين الوندال والبيزنطيين. وفيها تتجسد أنامل التشييد التي رسمت المدينة بعمران وطابع أحيائها المتنوع وتصميمها البديع حسب كل مرحلة.

ان عدم استغلال هذه الثروة العمرانية والمدينة الحضارية لخلق ثقافة سياحية جديدة بالإضافة الى قلة العناية والترميم وعدم اهتمام السلطات المعنية بقيمة هذه المواقع في تواصل الأجيال وتدعيم السياحة جعل منها مجرد ديكور مهدد بالاندثار في كل لحظة كدار الباي ومسجد أبي مروان وغيرهما. وهو ما سنحاول التطرق إليه من خلال هذه الورقة البحثية بتسليط الضوء على:

- أبعاد ومؤشرات المدن من ثقافة، صورة، سياحة وحداثة.
- تاريخ المدينة القديمة والمشاكل التي تعترض إعادة تهيئتها.

الإشكالية:

يتجه العالم اليوم أكثر فأكثر إلى إعادة الاعتبار إلى الإرث التاريخي الذي قدمته التراكمات البشرية كحضارات بكل أبعادها، حيث أقرت الجمعية العامة لليونسكو في 16 نوفمبر 1972 خلال جلستها 17 اتفاقية حول ضرورة حماية الإرث العالمي الثقافي والطبيعي من كل المؤثرات الخارجية وعوامل التحديث. ولعل أهم معالم التاريخ الحضاري التي تركتها الأيادي الإنسانية لا يمكن التعبير عنها بعيدا عن المدن القديمة في أشكالها المختلفة وبرموزها المادية العمرانية وقيمها وثقافتها وهويتها الروحية.

إن فهم شخصية البيئة المدنية الطبيعية والحضارية سواء داخل المدينة أو حولها يعد أمرا ضروريا للوقوف على احتمالات مستقبل المدن التي هي نتاج لمكونات بشرية وطبيعية لبنى متكاملة العناصر والمكونات. ومن المعروف أن العمران الحضري في الدول العربية قديم للغاية حيث ترجع بعض المدن إلى عدة آلاف من السنين بالرغم من تفاوت عدد السكان بها من فترة زمنية لأخرى. ولم يقتصر إذن دور العرب على إعادة الحياة إلى المدن الرومانية بل أضافوا إليها مدنا جديدة. وقد انقسمت جهود العرب في العمران المدني إلى قسمين: إنشاء مدن جديدة وتجديد وبعث مدن قديمة وموروثة عن أيام الرومان.

والمشكلة أن هذه المدن خاصة في البلدان النامية والعربية منها تتعرض يوما بعد يوم إلى عدة مشاكل لعل أهمها:

- ضغط كبير واكتظاظ سكاني صاحبته نسب مرتفعة من الفقر ما غير من سلوكيات التعامل مع الإرث العمراني، إذ تتكهن منظمة الأمم المتحدة سنة 2025 أن يسكن ثلثي سكان العالم المدن بما فيها المصنفة كإرث تاريخي.
- العامل الأول ولد بالضرورة العامل الثاني حيث سبب النمو الديمغرافي وتغير المعطيات السوسيوديمغرافية ونمو ثقافة عشق السكن بالمدن إلى توسيع عشوائي وضغط على المباني العمرانية.
- المدن القديمة تعاني من تشوهات بسبب البناء أو الترميم غير المناسب للمورفولوجيات القديمة بالإضافة إلى العوامل المناخية.
- عدم وجود اهتمام حقيقي من قبل السلطات والحكومات في دول العالم الثالث بهذه المعالم التاريخية التي يمكن تحويلها إلى مراكز سياحية.

إن المراكز العمرانية -كأجزاء من المدن- والتي كتب عنها المؤرخون الكثير هي الخط الوحيد الواصل بين الأجيال، لذلك استفادت في بعض الدول من برنامج مدن الإرث التاريخي العالمي المنطلق سنة 1996 تحت إشراف اليونسكو ما جعلها ذات سيط عالمي مقابل أخرى توجها الصمت وقلة العناية بالزوال التدريجي. فكل هذه العوامل وأخرى غيرها دفعت بالمجتمع

نسخة غير قابلة للطباعة

الدولي لإعادة النظر في قيمة هذه المراكز العمرانية ذات القيم الروحية، العاطفية والرمزية فقد أدمجت الدول الأوروبية مثلا مفهوما جديدا في برامجها للتنمية والسياحة المستديمة وهو "المنطقة المحمية".

وعلى كل حال لا يمكن الحفاظ على النسيج العمراني القديم إلا من خلال استراتيجية تنمية مستديمة تفتقدها دول العالم الثالث تمر بإعادة رسم معالم الأطر القانونية والإدارية والأخذ بعين الاعتبار بكل الأبعاد الاقتصادية، الاجتماعية....

إن هذه الكنوز التاريخية يمكن لها أن تتحول إلى منبع اقتصادي هام من خلال تسخيرها لخدمة السياحة والتعريف بها عالميا، بل ان "المدن بحياتها المزدهرة اكثر ملاءمة في ان تكون مراكز ادارة البلاد التي تقع فيها"[1]. فلقد أصبحت السياحة اليوم صناعة رئيسية على النطاق العالمي حيث تشكل موردا هاما بالنسبة للعديد من الدول بمداخيلها الهائلة. لكن ترقية هذا النشاط التجاري لم تأت من فراغ وإنما نتيجة الاهتمام بالقطاع وتسخير كل الإمكانيات، والسعي وراء التجديد بعيدا عن مقومات السياحة التقليدية التي لطالما دعمت بجمالية الشواطئ. وفعلا إن كان التوجه القديم سعى إلى استغلال الواجهات البحرية في تطوير السياحة الموسمية لمواجهة عقبات تجارة المحروقات بالنسبة للعديد من الدول فإن التوجه اليوم أصبح واضحا نحو استغلال التراكم الحضاري العمراني بكل رموزه وثقافاته للتعبير عن الثراء والتمكن السياحي.

وتعتبر الجزائر من بين الدول ذات الثراء الثقافي والتاريخي حيث كان أول قدوم للإنسانية فيها منذ 400.000 سنة تقريبا، حطت عليها العديد من الحضارات على مر القرون من رومان، فينيقيين، وندال، بيزنطيين...ثم قدوم العرب كالفاطميين، الموحدين...هذا الثراء جعل منها محط أنظار العالم حيث صنفت منذ 1980 عدة مواقع تاريخية من قبل اليونسكو كتيبازة، تيمقاد، قلعة بني حماد جميلة، القصبة... أما عنابة مدينة التاريخ والتراث والحضارة والجمال فلا يزال الطراز المعماري فيها بطابعه المليء بالأسرار شاهد ودليل على عراقة المدينة وتاريخها الحافل. ولعل المتجول بعيدا عن واجهتها البحرية يدرك جمالا من نوع آخر ترسمه كنوز مدينة بونة الأثرية وبنايات المدينة القديمة وساحة الثورة...

لكن لماذا لا تستغل هذه الثروة العمرانية والمدينة الحضارية في خلق ثقافة سياحية جديدة؟ وكيف يمكن تخطي مشاكل الصورة والعمران في المدن القديمة وحمايتها كإرث تاريخي وإعادة الاعتبار لرموزها الثقافية والمادية في إطار التنمية المستديمة وإبرازها كمعالم تخدم الساحة الوطنية؟ إن قلة العناية والترميم وعدم اهتمام السلطات المعنية بقيمة هذه الواقع في تواصل الأجيال وتدعيم السياحة جعل منها مجرد ديكور مهدد بالاندثار في كل لحظة. وهو ما سنحاول التطرق إليه من خلال هذه الورقة بتسليط الضوء على المشاكل التي تعترض حماية وترميم العمران القديم بعنابة والتي تنعكس سلبا على السياحة في "بلد السياحة".

الفصل الأول: أبعاد ومؤشرات المدينة:

لقد أصبحت مورفولوجية المدينة أو تركيبها الداخلي مجالا خصبا لتحليل المدن وترتبط هذه الدراسات بثلاث متغيرات: خطة المدينة، وظيفة المباني والأسلوب المعماري للمباني. والواقع أن نمو المدن ارتبط كذلك بالتغير في نمط الحياة والسلوك والعلاقات بين أفرادها. ولم يتفق بعد الباحثون على تعريف محدد للمدينة وان كانت المدينة كمظهر عمراني مألوف يمكن تمييزها بوضوح عن القرية في شكلها المورفولوجي الخارجي أو وظائفها أو حتى نموها التاريخي، لكن على العموم قد يعتمد تعريفها على حجم السكان أو الوظيفة الإدارية التي تؤديها ويتفق الكثيرون حول كونها مركز للتركز السكاني والعمل والترفيه. "فمع أن كل مدينة تتأثر بالأحوال الجغرافية للبقعة التي تظهر فيها الا ان العامل الاكبر في تطور اي مدينة هو تصرفات أهلها فالسكان هم العنصر الأساس في كل مدينة وعلى تصرفاتهم يتوق ازدهار او تدهور المدن"[2].والمدينة التي نراها اليوم هي نتيجة لعملية طويلة من التطور وهي تتأثر بموقعها الفلكي وتضاريسها، بتوزيعها المكاني، حجمها، رقعتها ونموها وجغرافية سكانها. كما

نسخة غير قابلة للطباعة

تؤدي المدن عدة وظائف منها الإدارية والسياسية، الدينية والثقافية، الصحية والترفيهية، الصناعية والتجارية. ولا يمكن تصنيف المدن إلا انطلاقا من أسس أهمها التصنيف التاريخي والتصنيف الوظيفي.

1-المدينة ثقافة وهوية:

تأخذ الثقافة عدة أشكال عبر الوقت والفضاء، وهذا التنوع ضروري لأن نعرفه باعتباره يعكس معتقدات شعب ساد آنذاك. والمدينة ليست فقط ذاك التراص العمراني المكون من المباني أو النسيج المتكامل بالتجهيزات، وإنما تعبر على فكر، أشخاص وسلوكياتهم، ثقافة وهوية بل وهي مشروع إنساني وثقافي ونقطة تواصل بين الأجيال يمكن أن تجعلها بداية لرحلة تجديد وإبداع إنساني آخر. وقد حذرت اتفاقية اليونسكو منذ ثلاثين عاما من أن الإرث الثقافي والطبيعي مهدد بالهدم والزوال ليس بسبب العوامل التقليدية فقط وإنما لتطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية ككل، رغم إن وجود مثل هذه المواقع التاريخية جغرافيا وفضائيا بقيمه العالمية يعبر عن ثقافة وروح إنسانية سكنت وعاشت وبنت لتقدم مدينة متكاملة بحياة وسلوكيات وعلوم ومهن و... "فالتوجه الثقافي والتراثي في التخطيط العمراني أصبح بعدا هاما في تغيير مستقبل تعمير المدن"[3]

2-صورة المدينة:

لا يحس الفرد منا بالراحة إلا إذا ما شاهد المدينة في أجمل صورها فهي قبل أي شيء بناء متكامل متناسق على شكل فن معماري ومنتوج نهائي لمشروع هندسي وانعكاس لنمط حياة وثقافة. لذا وجب الحفاظ على نوعية الصورة لتلك التراكمات المرحلية بكل أبعادها، إذ لا يمكن تحليل صورة المدن إلا من خلال الهوية، البنية والمعنى. والصورة في تطور مستمر ويمكن تعزيزها إما بالتركيز على الوسائط الرمزية أو بإعادة تربية وتنمية ثقافة من يدركها ويتعامل معها أو بتنسيق المحيط. ويحاول الإنسان من خلال الحضارات المتعاقبة أن يحسن صورة مدينته القديمة بحلة جديدة غير أن الملاحظ اليوم العشوائية في البناء وعدم الاهتمام بالجانب الجمالي للمدن والمراكز العمرانية. وترتبط الصورة الجماعية للمدينة التي تعبر عن الفكر والتحضر السائدين في كل حقبة بخمس عناصر وهي: الطرق، والحدود كسكك الحديد والأسوار، الأحياء، العقد كنقاط استراتيجية والنقاط المرجعية.

3-التطور العمراني:

لا تزال معظم المدن التاريخية المصنفة كإرث عالمي تاريخي مأهولة ما يجعلها عرضة للتغيير المستمر في الواجهات وأنماط الحياة فتعاقب السكان في حد ذاته يخلق معه ثقافات جديدة لتسيير الفضاءات والأنسجة العمرانية بنشاطاتها المختلفة. وما هو ملاحظ تناقص دور الحكومات والسلطات في التنسيق وحماية هذه المراكز العمرانية خاصة في دول العالم الثالث. كما تعرضت المباني في الكثير من الأحيان للعوامل المناخية والتاريخية والإنسانية كالهدم غير المسؤول، البناء المكثف، والتطور السكاني والاجتماعي والاقتصادي بمختلف إفرازاته. كما أن المدن التاريخية تجذب القليل من المستثمرين في الدول النامية على عكس الدول المتقدمة. ولا يمكن الحديث عن القانون فيما يخص ترميم المدن القديمة لأنه يختلف من بلد لآخر وهو من يحدد طرق التدخل.

4-الحداثة، السياحة والتاريخ:

"من الملامح الرئيسية للمدن انها ذات طابع تجاري وهو ما يجعلها تواجه تيار التغير بمختلف اشكاله بسبب الحركة والنشاط المستمر فيها وعلى جميع الجوانب"[4]. لذا يمكن للمدن التاريخية إذا أحسن تسييرها أن تكون أحد أهم وسائل التنمية المستديمة، ومن ثمة تخدم السياحة المحلية ولذلك يجب أن تكون هناك معرفة حقيقية للتاريخ والقيم والثقافة باعتبارها مكسبا اقتصاديا، اجتماعيا وثقافيا. وسيمكن للسياحة إذن أن تقوم على الإرث التاريخي من جهة، وأن تقدم الكثير من جهة أخرى

نسخة غير قابلة للطباعة

للاقتصاد من خلال خلق فرص العمل والتعريف بهذه المعالم عالميا. وما يجب التأكد منه هو أن تكاليف بناء المراكز والتجهيزات السياحية ستكون اقل بكثير من الخسائر المادية والمعنوية التي تفرزها البناءات الجديدة إذا لم يكن هناك تناسق يحفظ مورفولوجية التاريخ وهويته. وإن كان البعض يرى أن تطوير المدن القديمة يهدم ويجدد معالمها بصورة مختلفة فإن الحفاظ على قيمتها لا يعني بأي حال من الأحوال الوقوف أمام الحداثة فمجرد الاهتمام بالإرث التاريخي يعد نقطة فكر متطور، لذلك يجب ترميم المواقع التاريخية بالعودة إلى الرموز الحضارية في إطار مقاربة حماية التاريخ وسط محيط جديد.

- فلا يجب تهميش المراكز العمرانية القديمة:

- اذ يتطلب التعامل مع المدن والمراكز العمرانية التاريخية حذرا في الموازنة بين الحفاظ على معالمها القديمة وبث روح الحداثة فيها.

- حماية وتسيير المدن والمواقع الثقافية تتطلب تقسيم ودراسة القيم والأولويات الثقافية التي تعكس الصورة والهوية، ثم تحويل هذا التقييم إلى أهداف ومخططات مع إشراك كل الأطراف.

- ترقية مسؤولية المواطن وتعزيز الحياة الاجتماعية والمستوى المعيشي والقيم والرموز بتفعيل حملات الإعلام، وإشراك المواطن والجمعيات والسلطات المحلية والدولية بخلق ثقافة محلية وتوأمة المدن الأوروبية الآسيوية والإفريقية.

- إعادة دراسة القانون لخدمة عمليات الترميم وتعزيز الإطار القانوني والإداري.

- إدماج برامج ومخططات حماية الثقافة والمباني والدراسات التوثيقية والمعمارية وإنشاء مراكز استشارية.

- تحسين وضعية المباني مع ربط الروح التاريخية بعناصر الحداثة وتحديد معايير البناء التاريخي والمراقبة التقنية.

- حماية المحيط الطبيعي.

الفصل الثاني: المدينة القديمة تاريخ وحضارة:

تعتبر المدينة القديمة أو مدينة العناب الواقعة شرق ساحة الثورة مركزا تاريخيا ثقافيا، دينيا وسياسيا بل وتراكما عمرانيا بخصائص جغرافية وفضائية فريدة جعلت منها مدينة متكاملة التجهيزات. وهذا الصرح التاريخي هو نتاج حضارة عربية إسلامية واستعمارية، يضم منطقتين عليا وسفلى وبه أربع محاور شرق-غرب / شمال-جنوب. وتعد هذه المدينة الحضرية وريثة هيبون التاريخية بل وهي ثاني معلم بعد هيبون في ولاية عنابة من حيث الأهمية.

1-الموقع الجغرافي:

تقع المدينة القديمة وسط مدينة عنابة يحدها من الشمال شارع 19 جوان، من الشرق الجدار الموازي للبحر، من الجنوب شارع ما قبل الميناء ومن الغرب شارع الثورة. تبلغ مساحتها 16 هكتارا. وتقف على منحدر مقبل يميل نحو البحر ما يجعلها أكثر صمودا، ويمكن الوصول إليها من خلال المنطقة السفلى عبر ست محاور فيما لا يمكن الدخول إلى قلبها من خلال المنطقة العليا إلا عبر الميناء الحديدي المعلق.

2-الإحصاء السكاني[5]:

الإحصاءات الخاصة بالتقدم السكاني الذي كان متواجدا بالمدينة القديمة قبل الحقبة الاستعمارية غير موجودة في الأرشيف عدا بعض التكهنات والتي تشير استنادا إلى دراسات تاريخية إلى رقم يتراوح بين 15.000 و 30.000 ساكن. أما أثناء فترة الاستعمار فقد تميز عدد السكان بانخفاض شديد بعد رحيل الأتراك، الحروب، الهجرة والأوبئة كالكوليرا سنة 1837 لكن وبالمقابل صاحب ذلك فيما بعد حضور قوي للأوربيين ما ساهم في ارتفاع عدد السكان مجددا خلال النصف الأول من القرن العشري، ليثبت العدد نسبيا بين 1948 و1954 ثم يتقهقر إلى غاية 1966 بسبب اندلاع الثورة ورحيل

نسخة غير قابلة للطباعة

الأوروبيين. وتميزت سنوات السبعينيات بارتفاع عدد السكان بعد ثورة التصنيع التي عرفتها الولاية ككل والنزوح الريفي حيث وصل إلى 24.000 لتسجل سنة 2001 : 12.405 ساكنا أي 12% من إجمالي سكان ولاية عنابة.

وقد أثبتت الدراسات أن 65% من السكان فقط (2001) استقروا فيها منذ 4 أو 5 سنوات فقط بسبب أزمة السكن التي عرفتها الجزائر من جهة وسهولة الالتحاق بالمدينة القديمة من جهة أخرى، أما النسبة المتبقية فموجودة منذ سنوات التسعينيات. فيما اكدت إحدى الدراسات أن 60% من السكان متواجدين بالمدينة القديمة لأنها مكان لجوء سهل الالتحاق به أو للحصول على سكن اجتماعي وقليلون جدا من يقطنونها لتعلقهم بالقيم والبحث عن الرموز 40%.

كما اشارت نفس هذه الدراسات أن 87% من العائلات ذات أصول عنابية تليها ولايات الطارف، قالمة، سوق أهراس ثم جيجل، سكيكدة وقسنطينة بنسب ضئيلة. ويعيش كمتوسط عام 05 أفراد داخل منزل واحد و08 أفراد بنسبة 28% ما يؤكد فرضية وجود عدد سكان كبير مقارنة بعدد المساكن.

3-طريقة التنظيم في المدينة القديمة:

تعتبر المدن الإسلامية من أكثر المدن كمالية باعتبارها تجمع المباني حول مراكز حرفية، تجارية وعلمية وهي وضعية تسيير الفضاءات في المدينة القديمة أين يقسم الفضاء إلى نهج، زقاق وطريق مسدود وتتجمع المباني حول السوق تحيط بها الأسوار، وتنفتح على أبواب هي باب البحر، باب الرحبة، باب السوقان باب المقابر، باب الجديد والتي يمكن للزائر الدخول من خلالها إلى المدينة القديمة وتربط فيما بينها شوارع كبرى.

أما الساحة فتضم السوق، المسجد والإقامة، بالإضافة إلى ساحة صغيرة بها أماكن للراحة واللقاء قرب الأبواب. الطرق عبارة عن زقاقات وزنقات ضف إلى ذلك 14 سوقا، 37 مسجدا والحمامات والفنادق. إلا أن التغييرات المستمرة كتوسيع الطرق خلال الحقبة الاستعمارية أدت إلى خلق وتوسيع ساحة السلاح لتجمع الجنود لتتحول إلى مكان تجمع السكان الأصليين. واليوم لم تعد هذه التجهيزات والمباني في معظمها صالحة للاستعمال خاصة الفنادق والأسواق.

4-وضعية البناءات:

إن كانت المدينة القديمة هي نسيج عمراني متكامل من دارات وعمارات فهي تحتوي وبنسب كبيرة على منازل بغرفة واحدة. كما تحتوى 95% من المنازل المتكاملة على مطبخ، وعلى حمام بنسبة 45% لكن تظل المشكلة الأساسية التي تواجه السكان نقص الماء الشروب على عكس الكهرباء والغاز.

وتعاني معظم المباني التي قد يتجاوز عمرها في كثير من الأحيان مئتي عام من الانهيارات، وهذا لعدة أسباب على رأسها عدم الترميم، الترميم غير المناسب دون الاعتماد على المختصين والمواد المناسبة والملائمة لطبيعة العمران، تراكم المياه القذرة والأمطار والتشققات.

حالة المبنى	جيدة	متوسطة	سيئة	حالة هدم
عدد المباني	73	327	132	36
نسبة المباني	%7.1	%57.1	%29.5	%6.3

يوضح الجدول[6] حالة المباني من إجمالي 568 مسكنا معظمها أملاك خاصة ونسب قليلة تابعة للديوان الترقية والتسيير العقاري، أما فيما يخص السكان فمعظمهم ملاك ثم مستأجرين فمحتلين للمنازل الشاغرة.. أما المستويات الموجودة بكثرة فهي تلك المكونة من r+1 اي طابق ارضي وأول، ثم طابق ارضي وطابقين r+2 ...ف r+5 بنسب قليلة.

نسخة غير قابلة للطباعة

نوع العمران	عربي-تركي	مختلط	أوروبي
عدد المباني	59	151	323

الملاحظ من خلال التشخيص التقني لحالة المباني أن تلك ذات العمران العربي التركي هي الأكثر تأثرا مقارنة بذات الحقبة الأوروبية. كما أن أكثر المناطق تأثرا المنطقة العليا من المدينة القديمة خاصة وأنها مهمشة من ناحية مخططات الترميم، فيما ستتعرض المباني التي هي في حالة متوسطة إلى تدهور خطير إذا لم يتم صيانتها.

وتعتبر المدينة القديمة مركزا تجاريا هاما بنشاط تجارة الجوار كالمواد الغذائية، تجارة الترف كالذهب، تجارة الخدمات كالمطاعم والحلاقات، التجارة الحرفية والفنية فالتجارة المتنقلة وغير الشرعية. كما أنها مركزا ثقافيا هاما من خلال احتوائها 03 مدارس معهد للحقوق سابقا معهد البترول، مراكز أنترنيت EEPAD و04 مراكز ثقافية.

بالإضافة إلى ذلك فهي تضم تجهيزات اجتماعية 15 إدارة، دار للشيخوخة مركزي بلدية، 11 فندق، 06 حمامات، مصنع المياه الغازية، سوق AFAD و 04 بيوت إقامة... أما الطرق فجاءت مغطاة بأنواع من الحجر الخام بطريقة متراصة لو لا التسربات وتجديد قنوات مياه الصرف المتواصل الذي أحدث تشققات وانكسارات شوهتها.

5-عمران المدينة القديمة[7]:

المباني مغطاة بطريقتين أولها التقليدية والتي تكون فيها المباني المغطاة قليلة قبل الاحتلال مفصلة عن بعضها تماشيا مع القيم العربية المحتشمة. والثانية أوروبية الشكل يستخدم فيها القرميد لتغطية السطوح. بالنسبة للعمران العربي التركي فموجود بنسبة 11% تقريبا أي 59 منزلا ذات فضاء خاص مغلق نحو الخارج مفتوح على ساحة داخلية تلتف حولها فضاءات أخرى وغرف، بها أقواس، فسيفساء، أعمدة وصحون وباحات مصنوعة من الحجر الخام. وتوجد معظم هذه المباني في المنطقة العليا. أما المباني المختلطة (151 معلما بنسبة 28.3%) فتظهر على الواجهات فقط مع تغيير بعض الساحات والأسطح فيما صنعت المباني الأوروبية (أكثر من 300 معلما بنسبة 60.6%) بالمواد البنائية الجديدة كالخرسان والفولاذ، والغرف فيها منفصلة عن طريق ممر حيث تطل الواجهات على الخارج. والملاحظ أن المباني العربية التركية والمختلطة متراصة بشكل متجانس، أما الأوروبية فمتواجدة بشكل خطي.

6-تاريخ المدينة القديمة[8] :

مرت على بونة عدة حضارات جعلت منها صرحا ومعلما تاريخي هام لا يشبع فضول السائح ولا المقيم فيها، فقد عرفت الحضارة البونيقية، النوميدية الرومانية سنة 46 قبل الميلاد إلى غاية 430 بعد الميلاد. بعد التواجد الوندالي كان البيزنطيين أهلا لها من القرن الخامس إلى السابع حيث عرفت المدينة ازدهارا واضحا حتى نهاية القرن السابع حين تحولت إلى مأوى وملاذ للبربر بعد سقوط قرطاج في 698 بعد الميلاد. نهاية القرن السابع تمكن العرب من السيطرة على المدينة تحت رئاسة حسن بن النعمان الغساني.

أما بونة الحديثة فبنيت في القرن العاشر بأولى المنازل حول منبع بير النثرا قرب حامة القايد، فكانت المدينة القديمة على هضبة قرب بعثة سيدي شرايط بفن عمراني أندلسي مع أزقة محاطة بدروب. كبرت المدينة بسرعة ليبنى ثاني مسجد بها وهو مسجد أبو مروان البوني عام 1033. وأحيطت المدينة العتيقة سنة 450 هجري أي 1058 بعد الميلاد بأسوار دعمت أكثر خلال فترة تواجد الموحدين لتقع تحت سلطة الأغالبة في 1175 بعد الميلاد فالزيريين حكام افريقيا من قيروان خلال القرنين الثامن والتاسع، والفاطميين من المهدية القرن 10، الحماديين القرن 11، المرابطين القرن 12، الحفصيين من تونس القرن 13 لتفتح الأبواب فيما بعد لسلطان تونس أبو عينان سنة 1375 ليطلب السكان سنة 1534 عون خيرالدين بربروس

نسخة غير قابلة للطباعة

أميرال الأساطيل التركية. تبعتها مباشرة حملة إسبانية قادها مركيس مودجار ودون ألفارد تمكنت من السيطرة على المدينة أين ظل الإسبان فيها حتى 1540 لكن الأتراك استعادوا المدينة بعد رحيل الإسبان لتظل تحت سيطرة بايات قسنطينة منهم صالح باي (1775-1792).

ووقعت بونة تحت أيدي الاستعمار الفرنسي عام 1832 الذي أحدث قطيعة واضحة مع العمران العربي التركي حيث هدمت المعالم التاريخية وأعيد بناء البعض منها لتكييفها مع مورفولوجية المحتل والعمران الأوروبي، وكان أول مخطط لتوسيع الطرق سنة 1833، ثم مخطط خلق البلدية الجديدة 1845، 1853 إحاطة المدينة القديمة بأخرى جديدة و 1893 ربط الاثنتين بباب القديس أوغيستين الذي فتح طريقا تربط المدينة القديمة بساحة برتانيا أو ساحة الثورة فيما بعد. وتم إنشاء الجسر المعلق سنة 1899 وحول مسجد أبو مروان إلى مستشفى عسكري. خلال فترة الاستقلال شهدت المدينة تغيرات اقتصادية، اجتماعية، وعمرانية دون التفطن إلى الحفاظ على العمران التاريخي.

7-أهم المعالم التاريخية[9]:

*حومة بئر جرادة:

تمثل رمز بداية بونة الحديثة في 965 ميلادي بشارع القائد خالد وردب ماداني عبد الشاكور.

*سوق الحوقاء:

بين عيسات ايدير وبطحة بن بقة بقرب مسجد أبي مروان، مهدد بالانهيار ولقد كان في الماضي متميزا بممراته المغطاة ومنحدره الذي يؤدي إلى الميناء ويحتاج البناء إلى تدخل عاجل خاصة وأنه يعود إلى عهد الصنهاجيين.

*زاوية سيدي عبد القادر:

بشارع 44 حميطوش عبد الغني قديما شارع نافاران هذه الدار من البنايات الصلبة مهددة بالانهيار. وتنتمي إلى العهد الحفصي 1420 ميلادي كانت مخصصة للحفلات العائلية كالزواج، الاختتان وكذا مكان للراحة لعشاق النوبات.

*القصبة:

بنيت عام 700 للهجرة 1300 ميلاد من طرف الأمير بونة محمد صالح ابن منصور العزيزي مساحتها 02 هكتار، في حالة مزرية بعد أن أصبحت مأوى للفئران رغم إمكانية جعلها متحفا تاريخيا خاصة وأنها غير مأهولة.

*سرايا القرنبلي:

في شارع 01 دالي ابراهيم عند تقاطع زقاق القديس نيكولا وستاوالي فقدت الكثير من طابعها المعماري، كما أتلفت زخرفة باب المدخل وهي أيضا كانت متحفا. وقد بني هذا القصر سنة 1630م من طرف مصطفى القردنسي والملقب بالقرنبلي وأصله من غرناطة حيث كان أميرا ثريا وواسع المعرفة وكل الوثائق والأرشيف المتعلقة بالأمير والذين جاؤوا من بعده محفوظة بالقصر.

*القصارين:

بني سنة 970 هجري من طرف الصنهاجيين ليجدده الحفصانيين وهو موجود قرب ممر الميناء سابات والسلم الذي يؤدي إلى الميناء فوق الجسر. وقد سدت أبواب هذا الجناح من طرف الفرنسيين خلال وجودهم. اليوم القصر مركز لتجمع الأوساخ رغم إمكانية جعله معلما سياحيا بمنظره الجميل الذي يجلب الزوار.

نسخة غير قابلة للطباعة

*حمام القايد:

يتعدى عمره ألف سنة وقد فقد جزء من طابعه الأصلي وتم بناؤه من طرف الأميرة جرادة خلال 980م. وعند حفر الصخر وجد منبع بئر النترة فقامت الأميرة زريد بإخلاء القاعدة ببناء قاعة تحت الأرض مغطاة بقبة محمولة بأعمدة ذات قواعد صلبة يمكن الوصول إليها عن طريق بئر ضيق وغارق، وهو الحمام الأول لمدينة بونة والفريد من نوعه في إفريقيا الشمالية. يحتوي الحمام على فناء مزين بالأقواس ومدخله من الرخام مكتوب علية بالخط الكوفي حمام القايد.

*المئذنة الثانية لمسجد الباي:

تم هدم جزء من المئذنة في 796 ميلادي وقد كانت موضع نزاع بين الأتراك والعرب وما تبقى منها فهو في وضعية حسنة نسبيا. يتواجد في أعالي المدينة بمساحة 3725 متر مربع به قاعة للصلاة لـ 1200 شخص ومعهد تدريس إسلامي ومدرسة قرآنية حولت إلى مركز إسلامي ثقافي.

ومسجد أبو مروان فهو نسبة لأبو عبد الملك أبو مروان أو مروان عبد الملك بن العلي البوني أندلسي الأصل من الفقهاء، وقد أسس المسجد أواخر النصف الثاني من القرن الرابع هجري وأشرف على بنائه قائد جيش الحامية البحرية بالرباط أبو الليث البوني إلى أن توفي ودفن به أما أبو مروان عبد الملك فلازم المسجد وعمره بدروسه العلمية إلى أن توفي ودفن به. حول خلال الحقبة الاستعمارية إلى مستشفى عسكري إلى غاية حوادث 08 ماي 1945 الأليمة لكنه تأثر كثيرا جراء انفجار الباخرة المصرية نجمة الإسكندرية بالمرسى في 1965. وتم إصلاح المسجد أوائل سنة 1967.

*بيوت الأشراف والأعيان:

المدينة القديمة تشبه في مبانيها القصبة بالجزائر العاصمة تحتوي على العديد من البيوتات الكبرى وبداخلها الساحات والحدائق والقاعات الواسعة والتي ما زالت شاهدة إلى اليوم على ما بلغه السكان من درجة رقي وتحضر بذوق معماري وفني عال وسليم ومسحة من العمران الأندلسي. كانت هذه البيوت للأشراف والقضاة والمفتين ورجال الدين ومن أشهرها دار بنقى بجوار جامع سيدي خليف وهي آية في الروعة والجمال ومعلم أثري في غاية الرونق، دار الشيخ الباشا بن الوصيف بناها الدوق ديمال بن الملك فيليب عام 1840 ودار الأرقش، دار الرمانة، دار الشريف، دار لعوابدية، ودار سيدي بن منصور المؤرخة في القرن الرابع عشر هجري توجد في حالة رديئة وتعد حالة مستعجلة للاعتناء بها.

8-القانون وأشغال الترميمات:

للحفاظ على هذا النسيج العمراني المتميز التاريخي طبقا للقانون الساري المفعول 98/04 والذي يجعل من كل التدخلات على مستوى كل المراكز التاريخية خاضعة للاتفاقات المرتبطة بالمعالم المصنفة أجريت عدد من الدراسات لعل أهمها دراسة المهندس المعماري حفيان والديوان البلدي لإعادة ترميم وتهيئة الأحياء القديمة والتي أجمعت على ضرورة تقديم مخطط استعجالي لإنقاذ المباني وترحيل العائلات وتهديم كل ما بني على السطوح والساحات، وتحويل بعض المعالم إلى رموز ثقافية كدار السرايا والمساجد.

وقام لذلك الديوان البلدي بالتعداد السكاني والمعاينات التقنية للحي بالتنسيق مع مكتب للدراسات معتمد لإعادة القيمة الحقيقية للنسيج العمراني القديم طبقا لقانون 90/29 الهادف إلى وقاية المحيط، الأوساط الطبيعية، المناظر والتراث الثقافي والتاريخي على أساس احترام السياسة الوطنية للتهيئة العمرانية مع مراعاة القواعد والأدوات التنظيمية الخاصة بمخطط شغل الأراضي.

نسخة غير قابلة للطباعة

كما يعمل الديوان المسؤول على حماية الأحياء القديمة على تحسيس وتوجيه ذوي الممتلكات على مستوى المدينة للقيام بأشغال الترميم التهيئة والتجديد للحد من الوضعية المزرية التي آلت إليها المباني من قدم وعامل المناخ والعامل الإنساني وكذا تراكم القمامات والتي شوهت صورة المدينة القديمة بعد أن كادت تكون قطبا سياحيا هاما. بالإضافة إلى تدخلات فريق من الشباب التقنيين الذين يقومون بعمليات تعداد السكان والمعاينات التقنية.

الخاتمة:

تمثل المدينة القديمة موقعا تاريخيا وسياحيا هاما في الجزائر باحتوائها على آثار حضارات عبر قرون وسنوات لكنها اليوم أصبحت بالنسبة للبعض عائقا أمام الحداثة والتطور لأسباب عديدة لعل أهمها وضعية المباني والصورة السلبية التي تلازمها. وفعلا تعاني المدينة القديمة كمركز عمراني وتاريخي مأهول من عدة مشاكل وجب معالجتها ولو نسبيا:

- تهميش المدينة القديمة من المخططات الإستعجالية لإعادة الترميم وعدم تصنيفها كتراث حسب القانون رقم 98-04 15 جوان 1998 رغم أن الموجودات التي عثر عليها بين مبانيها تجعل من إعلانها كمنطقة تاريخية مختلطة قابلة للتجديد حتمية لا بد منها.

- الصورة السلبية التي رسخت في أذهان المجتمع المحلي حول أنها منطقة لجوء فقط للأزواج، والعائلات الفقيرة، وخريجي السجون والمدمنين ومركز لبيوت الدعارة والتراكم العجيب للقمامة، لذا يجب أن تتغير هذه الصورة النمطية السلبية بحملات واسعة النطاق تتكفل بها الجمعيات والسلطات المحلية.

- وضعية المباني المهدمة نتيجة التغيير والبناء العشوائي غير المراقب وعدم اللجوء للتقنيين وذوو الكفاءة في الميدان وكذا العوامل المناخية وتقدم عمر المباني ما جعل نسبة كبيرة منها في حاجة للترميم المراقب وفق الحفاظ على مورفولوجية البناءات القديمة مع إدخال عناصر التحديث.

- محاولة مراقبة طرق احتلال السكنات الشاغرة بطريقة غير شرعية لتجنب تكرار مشكلة عودة السكان مجددا بعد إسكانهم لتقليص الضغط الديموغرافي الممارس عليها حاليا.

- حل مشاكل المياه القذرة والتموين بالمياه الصالحة للشرب لتجنب تدهور الطرقات.

- الصيانة المستمرة للأشكال العمرانية التاريخية –المقسمة إلى أوروبية مختلطة وعربية تركية- بمساعدة مادية واستشارية لأصحاب الأملاك الخاصة لإعادة الرونق القديم بصوره الحديثة للمنازل وتحصيل ضرائب الاستئجار لدعم تنمية مباني القطاع العام.

- حل المشاكل القانونية وتسهيل الإجراءات القانونية والإدارية والمالية للحفاظ على هذا الإرث التاريخي.

- ما لوحظ أن أكثر المباني تأثرا تلك العربية التركية مقارنة بالأوروبية من جهة ومن جهة أخرى عدم إحساس السكان بقيمة المدينة القديمة وخطورة تدهور المباني لذا وجب إعادة صنع ثقافة إيجابية بتعزيز روح الانتماء للمكان لتحسين مفهوم العيش سويا.

- لا مبالاة السلطات المحلية من أحد أهم العوائق لذا وجب إشراك كل الأطراف في العملية من سلطات محلية ومجتمع ومؤسسات مالية ومواطنين وجمعيات ومنظمات دولية.

- تحتوي المدينة القديمة على فضاءات غير مستغلة مباشرة كالجيوب الفارغة بعد التهديم 46% وأخرى غير مباشرة كالمساكن القائمة لكن في حالة مزرية 54% والتي يمكن استغلالها لبناء تجهيزات سياحية.

نسخة غير قابلة للطباعة

- تحويل بعض المعالم إلى رموز ثقافية وإحياء بناءات وتجهيزات السياحة من مطاعم وسرايا وحمامات ومساجد لتكون المدينة مرآة للحضارة العربية التركية.

إن إعادة الاعتبار لهوية وثقافة المدينة القديمة وربط العمران التاريخي بالحداثة بالترميم والاهتمام وتغيير الصورة السلبية عنها لجعلها مركزا سياحيا يمكن أن تتوجه إليه الوفود السياحية سيظل حلا نظريا باعتبار أنه لا يمكن أن يلغي حقيقة غياب الأمن في المدينة القديمة، والذي وجب إعادة النظر من خلاله في الإجراءات الأمنية ومن ثمة تخصيص مناطق وديار سياحية رئيسية تكون دعيمة للاقتصاد بدل الاكتفاء بترقية سياحة الواجهات البحرية.

ورغم التدخلات التي ينفذها الديوان البلدي لترميم وتجديد الأحياء القديمة، ورغم أن عددا من المباني يتعرض للترميم والتجديد وفق العمران الحضاري إلا أن الدعم المالي غير كافي مقارنة بالخطر الداهم الذي ينتظر السكان والعائلات والبيوت الآيلة للسقوط في أي لحظة والوضعية المزرية التي تسبح فيها المدينة..

لذا علينا ان لا ننسى ان المدينة القديمة تاريخ قديم وفكر أجيال وسياحة مستديمة وضمير جماعي لا تنتظر إلا الجدية.

الهوامش:

1- حارث علي العبيدي: "دراسات سوسيو انثربولوجية"، دار غيداء عمان، 2012.

2-صالح احمد العلي: "المدينة والحياة المدنية"، بغداد، 1988.

3- فتحي محمد أبو عيانة، "جغرافية السكن والسكان/ فصول مختارة"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999.

4- "التخطيط العمراني الاستراتيجي والادارة الاستراتيجية للمدن"، سلسلة دراسات يصدرها المركز الانتاج الاعلامي جامعة الملك عبد العزيز، ص 52.

5- "حوصلة للمعاينات التقنية والتعداد السكاني للديوان البلدي لترميم وتهيئة الأحياء القديمة"، 2002.

Ouvrages en Français :

1- Pierre Robert Baudel, « Habitat Etat Société Au Maghreb », Ed CNRS, 1986.

2- Hsen Derdour, « Annaba 25 Siècles De Vie Quotidienne Et De Luttes », Tome 1, 2 ème Ed Achève D'Imprimer Sur Les Presses De L'Imprimerie, Batna.

3- Kevin Lynch, « L'Image De La Cité », Collections Aspects De L'Urbanisme, Dunod, Paris, 1976.

Autres :

1-« Plan D'Occupation Des Sols De La Vieille Ville Annaba Analyse Et Diagnostic Phase 01 », Atelier D'Urbanisme Et D'Architecture AUF Hafiane Architecte Urbaniste, Juin, 2002.

2-« Cahier Du Patrimoine Mondial / Partenariats Pour Les Villes Du Patrimoine Mondial : La Culture Comme Vecteur De Développement Urbain Durable », Unesco, Séminaire International, 11-12 Novembre 2002, Italie.

3-« Projets De Réhabilitation DU Centre Historique », APS 06/09/2002.

4- « Vieille Ville De Annaba Danger De Mort Au Quotidien », El-Watan, Ed 23/02/2005.

نسخة غير قابلة للطباعة